الفصل الخامس

التنظيم والادارة

بعد أن عرضنا في الفصول الثلاثة السابقة لأنماط المكتبات، وبيَّنا كيف كان الوقف سبباً في قيامها، وبالتالي كيف أن المكتبة العربية حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري ما هي إلا نتيجة لهذا الوقف وإفرازاً لأريحية أفراد أو جماعات رأت فيه سبيلاً لبناء قاعدة ثقافية تكفل توفير احتياج الفرد العادي إلى الكتاب، فتشيع بذلك المعرفة في ظل ظروف صعبة كان الحصول على الكتاب فيها يعد أمراً شاقاً يتطلب مالاً ويتطلب رحلة، ويستغرق عمراً.

نأتي إلى قضية لا تقل أهمية عن قيام المكتبات وظهورها كياناً شامخاً، ألا وهي تنظيم تلك المكتبات وإدارتها، بل تنظيم النسخة الموقوفة أحياناً وتقيد استخدامها، وهنا نصل إلى قناعة أشد بأن الوقف كان أساس بنية المكتبة العربية، فهو إن كان سبباً في قيامها، فقد كان منطلق تنظيمها وإدارتها على ركائز وقواعد محددة في الغالب بغض النظر عن صلاحية الركائز والقواعد المقننة والمنظمة له.

وأول ما يجب أن نتحدث عنه هنا هو كيفية إثبات الوقف والإعلان عنه، إذ أن ذلك هو المدخل وهو المستند التنظيمي الذي يفترض أن يعتمد عليه ما بقي الكتاب الموقوف صالحاً للاستخدام.

طرق إثبات الوقف :

وهناك ثلاثة طرق استخدمت في إثبات الوقف والإعلان عنه وهي :

(أ) كتابة نص الوقفية على الكتاب نفسه.

(ب) كتابة وثيقة وقف شاملة تبين الحدود والأهداف العامة وتسجل أمام القضاء الشرعي.

(جـ) ختم صفحة العنوان وصفحات غيرها أحياناً بخاتم يدلل على الوقف.

وليس هناك نص أو نصوص مثالية يمكن القول أنها استخدمت من قبل الواقفين بشكل عام، بل ما نجده هو تفاوت واضح في الصيغ الوقفية سواء كانت مسجلة على الكتاب الموقوف، أو جاءت في وثيقة شرعية مستقلة، أو أشير إليها بخاتم فيه أقل قدر ممكن من المعلومات.

أ ــ كتابة نص الوقف على الكتاب نفسه :

ويبدو أن هذا النمط هو أقدم ما استخدم لإثبات الوقف والإعلان عنه، وهو أمر طبيعي مرده أن الوقف بدأ بنسخ مفردة من المصاحف كانت تكتب عليها نصوص وقفية قصيرة يشار فيها إلى اسم الواقف والتاريخ الذي تم فيه الوقف، كما هو الحال بالنسبة للجزء من المصحف الذي وقفه عبد المنعم بن أحمد في عام ٢٩٨هـ[١]، وكذلك ما كتب على المصحف الذي جلبه أحد العراقيين إلى مصر ووقفه بجامع عمرو بن العاص في عام ٣٤٧هـ،[٢] وقد درج كافة الواقفين الذين أثبتوا وقفهم على الكتاب نفسه على استخدام صفحة العنوان مكاناً لذلك، وإن كان هناك من استخدم آخره لإثبات نص الوقفية، كما أن صيغ الوقف تتفاوت لغة وأسلوباً وقصراً وتضمينا للمعلومات.

فمن بين أقدم النصوص الوقفية النص الذي رآه المقري على المجلد الرابع من الإحاطة الذي وقف لسان الدين ابن الخطيب نسخة منه في حياته على أهل العلم بمصر، وجعل مقرها بخانقاه سعيد السعداء وأوكل إلى أبى عمرو بن عبد الله ابن الحاج الأندلسي القيام بذلك نيابة عنه. وكان النص على النحو التالي :

الحمد لله وحده، وقف الفقير إلى رحمة الله تعالى الشيخ أبو عمرو ابن عبد الله بن الحاج الأندلسي ــ نفع الله تعالى به ــ عن موكله مصنّفه الشيخ الإمام العلامة بركة الأندلس ــ لسان الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن الخطيب الأندلسي السّلماني ــ فسح الله تعالى في مدتّه، وفتح لنا وله أبواب رحمته، ومنحنا وإيّاه من رفده وعطيته، وأسكننا وإياه أعالي جنته ــ جميع هذا الكتاب «تاريخ غرناطة» وهو ثمانية أجزاء، هذا رابعها، عن مصنّفه المذكور بمقتضى التفويض الذي أحضره، وهو أنّه فوض إليه النيابة عنه في جميع أموره المالية كلّها، وشؤونه جميعها، والنظر في أحواله على اختلافها

وتباين أجناسها، تفويضاً تامّاً على العموم والاطلاق، والشمول والاستغراق، لم يستثن شيئاً مما تجوز النيابة فيه إلا أسنده إليه، وهو ثابت على سيدنا ومولانا قاضي القضاه يومئذ بثغر الاسكندرية المحروسة ــ أدام الله تعالى أيامه ــ كمال الدين خالصة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن الربعي المالكي ثبوته مؤرخ بثالث ذي الحجة عام سبعة وستين وسبعمائة، وقفاً شرعياً على جميع المسلمين ينتفعون به قراءة ونسخاً ومطالعة، وجعل مقره بالخانقاه الصالحية سعيد السعداء، رحم الله تعالى واقفها، وجعل النظر في ذلك للشيخ العلامة شهاب الدين أبى العباس أحمد بن حجلة، حرسه الله تعالى، ثم من بعده لناظر أوقاف الخانقاه المذكورة، فلا يحل لأحد، يؤمن بالله العظيم، ويعلم أنّه صائر إلى ربّه الكريم أن يبطله ولا شيئاً منه، فمن فعل ذلك أو أعان عليه فإنّما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم، ومن أعان على إبقائه على حكم الوقف المذكور جعله الله تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأشهد الواقف الوكيل عليه في ذلك في الثاني والعشرين لشهر الله تعالى المحرم عام ثمانية وستين وسبعمائة، انتهى[٣].

وكما يلاحظ فإن هذا النص فيه شيء من الطول إلى جانب سلامة لغته وجودة أسلوبه، وهو ما يميز أيضاً الوقفية الآتية والتي أثبتت في آخر كتاب الإحاطة بتاريخ غرناطة للسان الدين ابن الخطيب في النسخة التي وقفها السلطان الغرناطي أبو عبد الله محمد النصري في المدرسة اليوسفية وكتب نصها القاضي والوزير أبو يحيى بن عاصم ويعد النص من أطول النصوص الوقفية أما صيغته فهي التالية :

الحمد لله الجاعل الاستدلال بالأثر على المؤثر مما سلمه الأعلام، وشهدت به العقول الراجحة والأحلام، وهو الحجّة المعتمدة حين تتفاضل الألباب وتتقاصر الأفهام، وبه الاستمساك إن طرقت الشكوك أو عرضت الأوهام، وحسبك بما يسلم في هذا المقام العالي من الأدلة، وما يعتمد في هذا المجال المتضايق من البراهين المستقلّة، فحقيق أن يتلقى هذا النوع من الاستدلال فيما دون الفن المشار إليه بالقبول، ويستنبل المهتدى لاستنباطه لما فيه من التبادر للأفهام والتسابق للعقول،

وإذا ثبت أن المستدل بهذه الأدلّة سالك على سواء سبيل، ومنتم من صحة النظر إلى أكرم قبيل، فلا خفاء أن كتاب «الإحاطة» للشيخ الرئيس ذي الوزارتين أبي عبدالله ابن الخطيب ــ رحمه الله تعالى ــ من أثر هذه الدولة النصرية أدامها الله تعالى بكل اعتبار، ومآثرها التي هي عبرة لأولى الألباب وذكرى لذوي الأبصار، أما الأول خلاف الأنباء التي أظهرت بهجتها، وأوضحت حجتّها، وشرفت مقصدها، وكرمت مصعدها، إنّما هي مناقب ملوكها الكرام، ومكارم خلفائها الأعلام، أو أخبار من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور حملة السيوف والأقلام، وأفذاذ حفظة الدّين والدنيا، والشرف والعليا، والملك والإسلام، أو ما يرجع إلى مفاخر حضرة الملك، وينتظم نظم الجمان في ذلك السلك، من حصانة قلعتها، وأصالة منعتها، وقديم اختطاطها، وكريم جهادها ورباطها، وحسن ترتيبها ووضعها، وما اشتمل عليه من مقاصد الأنس أهل ربعها، وما سوى هذه الأقسام الثلاثة فمن قبيل القليل، ومما يرجع إلى شرف الحضرة ممنّ انتابها من أهل الفضل الواضح والمجد الأثيل، وأما ثانياً فإن راسم آياتها المتلوة ومبدع محاسنها المجلوة، وناقل صورتها من الفعل إلى القوّة، إنما هو حسنة من حسنات هذه الدولة النصرية الكريمة، ونشأة من نشآت جودها الشامل النعمة الهامل الديّمة، فما ظهر عليه من كمالات الأوصاف، على الإنصاف، فأخلاف هذه المكارم النصرية أرضعته، وعناياتها الجميلة أسمته فوق الكواكب ورفعته، وإليها ينسب إحسانه إن انتسب، ومن كريم تشريفها اكتسب، والحضرة هي منشؤه الذي عظم فيه قدره، بل أفقه الذي أشرق فيه بدره، والتشريفات السلطانية التي فتقت اللهّا باللّها، وأحلّت من مراقي العز فوق السها، وأمكنت الأيدي من الذخائر والأعلاق، وطوقت المنن كالقلائد في الأعناق، وقلدت الرياسة والأقلام أقلام، وثنت الوزارة والأعلام أعلام، فبهرت أنواع المحاسن، وورد معين البلاغة غير المطروق ولا الآسن، وبرعت التواليف في الفنون المتعددة واشتهرت التصانيف ومنها هذا التصنيف المشار إليه لما له من الأذمة المتأكدّة، إذ أظهر هذا الاستدلال، وأوضح البيان ما كتمه الإجمال، فلنفصح الآن بما قصد، ولنحقق من أنجم السعادة ما رصد، وذلك أن لمولانا أمير المسلمين،

المجاهد في سبيل رب العالمين، الغالب بالله المؤيد بنصره أبي عبد الله محمد ابن الخلفاء النصريين، أيده الله ونصره، وسنى له الفتح المبين ويسره، مآثر لم يسبق إليها، ومكارم لم يجر أحد من وسم بالكرم عليها، لجلالة قدرها، وضخامة أمرها، من ذلك هذا المقصد الذي أثر لها كالكتاب المذكور وسواه، مما هو واحد في فنه وفذ في معناه، عقد في جميعها التحبيس على أهل العلم والطلبة بحضرته العليا هنالك ليشمل به الامتاع، ويعم به الانتفاع، والله تعالى ينفع بهذا القصد الكريم، ويتولى المثوبة على هذا العقد الجسيم، وهذه النسخة في اثنى عشر سفراً متفقة الخط والعمل، اكتتب هذا على ظهر الأول منها، وبتاريخ رجب الفرد من عام تسعة وعشرين وثمانمائة، عرف الله تعالى بركته بمنه، انتهى.[٤].

وإذا كان النصان السابقان فيهما اهتمام باللغة وعناية بالأسلوب واستغراق يتجاوز قضية الوقف إلى إطالة وإسهاب قد لا يكون من ورائهما أي طائل، فإن النصوص الوقفية التي كتبت في فترات تالية للقرن العاشر الهجري تفتقر إلى العناية باللغة والأسلوب مع التركيز على مسألة الوقف وشروطه، وطلب المثوبة والغفران من الله.

وسنورد فيما يأتي بعضاً من هذه النصوص :

فقد ورد نص وقفيه على كتاب في المنطق على النحو التالي :

وقفت هذا الكتاب المستطاب ابتغاء لمرضاة الله الملك الوهاب وامتثالاً بحديث سيد السادات عليه أفضل التحيات الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت وقفاً صحيحاً مؤبداً وحبساً صريحاً مخلداً وشرطت التولية بالاستعمال لابني محمد مسعود أفندي والحاج خليل أفندي، وبعدهما لأولادهما الذكور نعوذ بالله تعالى بعد الانقراض لذكور أولادنا من الإناث وبعد انقراضهم لعلماء آمد في مكان محفوظ وأن لا يخرج إلا بالرهن فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه وأنا الفقير إليه عز شأنه وتعالى الحاج صبغة الله المفتي بآمد كوجك أحمد زاده غفر لهما[٥].

وقد كتب على هامش الجانب الأيمن في نهاية النص ما صيغته «وأليق ماأراد هذا الفاضل من مكان محفوظ، دار الكتب التي في مدرستي الراغبية..».

وورد النص التالي على حاشية الأمير في التوحيد.

أوقفت هذه الحاشية على من ينتفع بها من طلبة العلم بسائر وجوه الانتفاع مطالعة ومراجعة وغيرهما ابتغاء لوجه الله تعالى الكريم وطمعاً في التخلص من عذاب الجحيم ورجاء لفضله العظيم إنه غفور رحيم جواد كريم، وجعلت النظر لنفسي ثم من بعد لأرشد ذريتي وعلى الله الكريم الاعتماد نسأله التوفيق والسداد (فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله (ﷺ) أجمعين وعن التابعين وتابعيهم إلى يوم الدين، وعن الأئمة المجتهدين ومقلديهم، وغفر الله لي ولوالدي ولمشايخي ولجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات آمين. كتبه بيده الفانية محمد الإمام الطاهري، وقاله وهو بحال صحته غفر الله له وتقبل منه آمين[٦].

وجاء نص الوقفية على نسخة من صحيح مسلم كما يأتي :

الحمد لواقف نيات أعمال العباد والصلاة والسلام على سيدنا محمد الشافع المشفع يوم الفناء وعلى آله وأصحابه أصحاب السداد، وبعد: قد وقفت هذا الكتاب المستطاب وقفاً صحيحاً مؤبداً وحبسته حبساً شرعياً مخلداً ابتغاء لمرضاة الله الملك الغفار، وامتثالاً لحديث سيد السادات والأبرار الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت أو كما قال الحديث، وشرطت التولية بالإستعمال مادمت حيا ثم لا بنى صبغة الله حفظه الله ووقاه، ثم لأولاده الذكور نعوذ بالله تعالى بعد الأنقراض لذكور أولادنا من الأناث، وبعد انقراضهم لعلماء آمد في مكان محفوظ إن لم أعين مكاناً في حياتي وإلا فيها ونعمت، وأن لا يخرج إلا بالرهن الغال (فمن بدله بعد ما سمعه فإنما أثمه على الذين يبدلونه) وأنا الفقير السيد محمد راغب بن مسعود أفندى العريف بكوجك أحمد زاده[٧].

وورد على الجزء الثالث من صحيح البخاري، الذي كان وقفاً في المدرسة الراغبية مانصه :

الحمد لله الذي وقف أسرار أعمال عباده والصلاة على رسوله وآله صلاة دائمة دوام الأبد وأباده، وبعد: فقد وقفت هذه النسخة الشريفة مع ثلاثين أجزاء وقفاً صحيحاً ووضعتها في دار الكتب التي في مدرستي، وشرطت أن لا تخرج إلا بالرهن الغالي فمن بدله الآية وأنا الفقير الحاج محمد راغب مسعود أفندي غفر الله لهما[٨].

وكتب على صفحة العنوان في نسخة مخطوطة من شرح هداية الحكمة نص الوقفية التالي :

قد وقفت هذا الكتاب وقفاً صحيحاً مؤبداً وحبسته حبساً شرعياً مخلداً ووضعته دار الكتب التي في مدرستي الراغبية وشرطت أن لا يخرج إلا بالرهن الغالي وأنا الفقير الحاج محمد راغب بن محمد مسعود أفندي غفر لهما[٩].

ومن النصوص الطريفة التي نجدها، نص وقفية على الفوائد الضيائية يقول فيها الموقف :

الحمد لله الواقف سرائر ضمائر عباده الذي أوجدهم من العدم وسيعيدهم إلى معاده، والصلاة والسلام على من أعلن الحق بين أهل الباطل بإسناده، وعلى آله وأصحابه الذين هم رواس الدين وأوتاده.

وبعد فلما ارتحل أخي وقرة عيني الأعز الأمجد واختار الآخرة على الأولى، اخترت ما هو الأنسب والأجزى لشيد ذكره عند خموله واستمرار الحسنات الجارية عند انقطاع عمله من التصرف في مخلفاته، فوقفت هذه النسخة الشريفة التي هي من كتبه في دار الكتب التي بناها جدي المحدث الأوحد المعنونة باسمه أعني الراغبية على وفق شرائط وقف ما جمعه فيها من الكتب الشريفة طلباً لمرضاة الله تعالى وآملاً أن يكون سبباً لإقالة عثراته ومغفرة منه تعالى لسيئاته، وأنا المفتقر إليه عز شأنه ذو العجز والتقصير السيد بكر صدقي العريف بنقيب زاده منحهم الله بالحسنى والزيادة[١٠].

وتحمل بعض الوقفيات المدونة على صفحات العناوين بالمخطوطات نماذج من الخلاف بين الموقف والناظر، أو تراجع الواقف عن الوقف والحكم في ذلك قضائياً، وقد رأينا نصاً من هذه النماذج على مجموعة من المخطوطات التي وقفها محمد بن على الفارسي في مكة ثم تراجع عن ذلك ويتضمن النص ما يأتي :

الحمد وحده حضر إلى المجلس الشرعي بمحكمة مكة المشرفة لخمس أيام بقين من شهر الحجة عام السادس والأربعين بعد المائتين الشيخ محمد بن الشيخ علي الفارسي وأوقف كتابه هذه على طلبة العلم بالمسجد الحرام ممن ينتفع به من المسلمين، وجعل مقره ببيته، وسلمه لناظره السيد أحمد البخاري فحضر المحكمة شارطاً عزله بعد التسجيل وأن لا يخرج إلا بتذكرة، ثم في ثاني يوم من محضره رجع في وقفيته، فنازعة الناظر المذكور فترافعا لمولانا الحاكم الشرعي فحكم بوقفيته حكماً صحيحاً شرعياً وأقام الواقف عليه ناظراً ثم من بعده يكون للأرشد من أولاده، ثم لمفتي الشافعية جرا ذلك والله خير الشاهدين حرر في ٢٥ الحجة سنة ١٢٤٦.

وختم النص بخاتم القاضي عبد المنعم[١١].

وورد نص الوقفية الآتية على السدس الثالث من جمع الجوامع للسيوطي وهو الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله محمد وآله وصحبه أجمعين وبعد فإن المكرم المحترم الموقف الحاج سعيد بن وجيه باقديم مالك هذا المجلد من جمع الجوامع للحافظ السيوطي وما قبله وما بعده من المجلدات قد وقفها جميعاً عن نفسه ووالديه وأصوله وفروعه .وأمواته ابتغاء مرضاة الله سائلاً من الله أن يجعل ثواب ذلك إليه وإليهم وإلى رسول الله قبل ذلك وذريته وصحابته على طلبة العلم المشتغلين به المنتفعين ما داموا وما بقوا إلى آخر الدهر، وجعل النظر عليه للفقير عمر بن عبد الكريم عبد الرسول، ثم لمن فيه أهلية من أولاده ينتفعون به ويعيرونه لمن ينتفع به ويحفظونه لديهم وقفاً صحيحاً شرعياً لا يباع ولا يوهب ولا يرهن ولا يؤجر ولا يستبدل به ولا يملك بوجه من الوجه (فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم) قبل الله منه ذلك وأثابه عليه الثواب الجزيل آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم حرر في محرم الحرام ١٢٤٧هـ[١٢].

وجاء النص التالي على وقفيته مدونة في عام ١١٧٦هـ.

هذا الكتاب مما وقفه وقفاً لازماً بأن علقه بالموت وجعله مخرجاً مخرج الوصية أفقر البرية إلى رحمة الله تعالى السيد حاجي حازم ابن المرحوم السيد حاجي عبد الرحمن الروحي الشهير بجلبي أفندي مدرساً بالمدرسة الكبرى لحضرة الصدر المرحوم إبراهيم باشا، ووضعه في بيت الكتب لذلك المرحوم وجعل توليته لمدرس تلك المدرسة وشرط أن لايخرج من بيت الكتب إلا برهن يساوي ضعف قيمته (فمن بدله بعد ما سمعه فإنما أثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم) وأجر الواقف على الحي الكريم، وكان ذلك في اليوم السادس والعشرين من شوال سنة ست وسبعين ومائة وألف[١٣].

ووقفنا على النص التالي في مخطوطة لم يذكر عليها عنوانها أو مؤلفها وهو كما يأتي :

قد اشترى هذا الكتاب من ثلث شعيبه رحمها الله تعالى أبوها اسماعيل المفتي بعرض أرض روم عفى الله تعالى عنه ليكون وقفاً للقادرين على استعماله وشرط أن يكون هو متوليه ثم أولاده الذكور بطناً بعد بطن ثم أكبر أولاد أبيه الذكور كذلك اللهم تقبله منها بحرمة حبيبك محمد (ﷺ) في شعبان سنة أربع ومائتين وألف[١٤].

وورد على نسخة من القرآن الكريم وقفت على الجامع الكبير بصنعاء ثم أخذت منه فيما بعد وبيعت في أوربا النص التالي :

وقف وحبس وسبل هذا الجزء وما قبله وما بعده من الأجزاء إلى تمام خمسة عشر جزء: الأخوان أبو المغيث وهادي ابني على الكناني للقراءة فيها بالجامع الكبير بمدينة صنعاء المحروسة لا يباع ولا يرهن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، تقبل الله ذلك منهما ثالث عشر محرم الحرام عام خمس وأربعين وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام (فمن بدله بعد ما سمعه فإنما اثمه على الذين يبدلونه) والله سميع عليم وذلك بوصية من أخيهما حسن بن على الكناني[١٥].

وكتب على نسخة بخط المؤلف من كتاب منتهى الارادات في جمع المقنع من التنقيح وزيادات وقفية نصها «وقف وحبس وسبل جميع هذا الكتاب فقير رحمة ربه العلي أحمد بن أحمد بن عوض المقدسي الحنبلي على عامة طلبة العلم وجعل مقره بزاوية الشيخ أحمد السحيمي (فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه)»[١٦].

ودون على نسخة من مصابيح السنة للبغوي ما نصه :

قد وقف وحبس هذا الكتاب المسمى بحديث مصابيح للإمام البغوي الشافعي المشهور بمحيي السنة رضاء لله العليم وهرباً من عقابه الأليم، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وجعل الواقف توليته وقراءته للعبد الفقير إلى رحمة الله ربه اللطيف عبد اللطيف ابن الحاجي شيخ موسى من قضاء قرة عيسالو في لواء بلدة آدنة المحروسة عفاها الله تعالى، وشرط أن لا يخرج من يده ما دام في حياته ثم لولده ثم لعصبته القادرين لمطالعته والمستفيدين من أهل ناحيته وبلده وقفاً صحيحاً شرعياً وحبساً صريحاً مرعياً بحيث لا يباع ولا يوهب ولا يؤجر ولا يرهن ولا يبدل (فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم) ثم، ثبت وقفه وقرر من سنة ثمان وثمانين وألف من الهجرة النبوية عليه أفضل الصلاة والتحية[١٧].

وقد يرد نص الوقفية مختصراً على النحو التالي «وقفت لأولادي الذكور ولأولاد أولاد الذكور وقفاً صحيحاً لا يباع ولا يرهن (فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم) الحاج على»[١٨].

ونص آخر ورد على نسخة من كتاب شرح فرائض السجاوندي جاء فيه «قد وقفت هذا الكتاب لمرضاة الله تعالى وقفاً صحيحاً لا يباع ولا يشترى لأولادي الذكور ولارباب العلوم سنة ١٢٩١ جمادي الآخر وأنا الفقير...»[١٩].

وحملت نسخة من مخطوطة لم نتعرف على عنوانها أو مؤلفها ما نصه «قد وقف وأبد وخلد هذا الكتاب على المستحقين من طلبة العلوم العبد الضعيف يوسف ابن الحاج على الشهير بالفاشوخ عفى عنه سنة ١٢٢٥»[٢٠].

وتحمل الكثير من المخطوطات الموقوفة في الفترة المتأخرة نصوصاً سقيمة تغلب عليها العجمة فقد ورد على واحد منها ما نصه :

«وقفت هذه النسخة الشريفة لروح مريم بنت يوسف لمرضاة الله تعالى لا يباع ولا يشترى ولا يرهن ولا يرتهن ولا يعطى إلى غير أهله ووقفت لأهل الحق من العلماء العاملين لعن الله بايعها واشترائها بعد علمهما»[٢١].

وتحدد بعض الوقفيات أماكن الوقف كما نجد في النص التالي :
«قد وقف وحبس هذا الكتاب أمير اللواء السلطاني محمد بيك الألفي وجعل مقره خان الصفارين القديم»[٢٢].

ووردت نصوص وقفية بغير العربية على بعض المخطوطات العربية التي وقفت في مناطق من العالم الإسلامي مثل تركيا، تؤكد أن الاهتمام بوقف الكتاب حظي بإنتشار في كافة المناطق العربية والإسلامية.

ب ــ وثائق الوقف الشاملة :

وكانت عبارة عن صكوك شرعية تسجل في المحاكم ويشهد عليها الشهود وتتضمن أن فلاناً قد وقف مجموعة الكتب في دار مستقلة أو مدرسة أو مسجد أو رباط، وتحمل مجموعة من الشروط التي يجب أن تتبع في إدارة الوقف، وتبين ما تم وقفه في سبيل استمرار الاستفادة منه على المدى الطويل، وأقدم نماذج هذا النمط كانت ترد ضمن وثائق تشير إلى ما تم وقفه من أوقاف متنوعة على مجموعة متباينة منها المسجد والرباط والمدرسة والمكتبة، ومن أمثلة ذلك وثيقة وقف الحاكم بأمر الله الفاطمي المدونة في عام ٤٠٠هـ والتي تضمنت ما وقفه على الجامع الأزهر والجامع براشدة والجامع بالمقس ودار الحكمة[٢٣]، وهناك مجموعة من وثائق الوقف من العصر المملوكي تضمنت قضايا تنظيمية تتعلق بمكتبات المدارس، مثل وثيقة وقف السلطان الغوري، ووثيقة وقف السلطان فرج برقوق، ووثيقة وقف جمال الاستادار، ووثيقة وقف الأمير صرغتمش[٢٤].

وقد تضم وثيقة الوقف عند الإشارة إلى ما يخص المكتبة: عناوين الكتب الواقفية، وفي هذه الحالة تأتي الوثيقة في شكل كتاب مجلد، كما هو الحال بالنسبة لوثيقة وقف مسجد محمد بك أبي الذهب في القاهرة والتي جاءت في

كتاب صفحاته ١١٦ صفحة، اعتنى باخراجه عناية كبيرة من حيث التجليد والورق وجعلت الصفحات في أطر مذهبة[٢٥]، والنص المتعلق بوقف المكتبة يبتدأ من الصفحة الثالثة والسبعين وبدايته «.. وان مولانا الأمير محمد بيك الواقف المشار إليه أعلاه وقف أيضاً وحبس وسبل وتصدق لله سبحانه وتعالى بجميع الكتب الشريفة الجليلة المقيدة التي حوت القرآن وأنواع الفنون من تفسير وحديث وفقه وشروح ومتون وغير ذلك مما يأتي بيانه فيه المشتملة بدلالة الدفتر المكتتب في شأن ذلك على مصحفين..»[٢٦] وبعد تعداد وذكر العناوين التي وقفت، تذكر الوثيقة بعض النقاط المتعلقة بتنظيم الاستخدام والاستفادة منها، وما يتطلبه الحفاظ عليها من عقوبات تنزل على خازنها عند التفريط..[٢٧].

وجاء صك وقفية مكتبة نعمان الألوسي في كتاب يقع في ٣٣ ورقة قياسها ٢٦ × ٢٠ سم ذكرت فيه عناوين الكتب التي وقفت، وقد أشرنا إلى نص الوقفية عند الحديث عن المدرسة الألوسية في بغداد[٢٨] وهناك وقفية آل الحفظى[٢٩]

وإضافة إلى وثيقة الوقف كانت الكتب نفسها تحمل نصوصاً مطولة أو مختصرة تفيد بوقفها.

جـ الختم على صفحة العنوان وغيرها بخاتم يحدد الوقف :

وهناك طريقة ثالثة استخدمت لاشهار الوقف عن طريق ختم صفحة العنوان وصفحات أخرى غيرها بخاتم يحمل اسم الواقف، أو اسم المكان الذي جعلت فيه، وتختلف الأختام في شكلها وحجمها، فمنها المستدير ومنها البيضاوي ومنها المربع، وبعضها صغير الحجم، وأخرى ذات أحجام كبيرة، وأغلب هذه الأختام تكون بحروف مفرغة على أرضية سوداء أو بحروف سوداء مفرغة على أرضية بيضاء، كما أن بعضها بألوان أخرى خضراء وزرقاء أو بلون وردي، ونجد في بعضها اسم الموقف والمكان وبعض الشروط وتاريخ الوقف، بينما تقتصر أخرى على ذكر اسم الواقف أو اسم المكان الذي وقفت عليه، وقد نجد الختم مضافاً إلى نص الوقفية، وقد نجده عوضاً عنها في أحيان أخرى. وقد ختمت أغلب كتب المدرسة الفيضية في استانبول بخاتم شبه دائرى فيه «وقف شيخ الإسلام السيد فيض الله غفر الله له ولوالديه بشرط أن لا يخرج من المدرسة التي أنشأها بقسطنطينية سنة ١١١٣هـ».

كما استخدم على الكتب التي وقفها الوزير الشهيد علي، خاتم دائرى حمل العبارة التالية «مما وقفه الوزير الشهيد علي باشا رحمه الله تعالى بشرط أن لا يخرج من خزانته».

واستخدم لاثبات الوقف على كتب المدرسة الخاطونية خاتم كبير الحجم يحتوى على النص التالي: في شكل بيضاوي: «قد وقف هذا الكتاب المشير المفخم السيد عثمان باشا خزينة دار زادة وقفاً صحيحاً عاماً... وموضعه في كتبخانة التي بناها في المدرسة الخاطونية بشرط أن لا يخرج منها.. ١٢٥٩هـ»[٣٠] وقد ختمت بها جوانب صفحات كثيرة في المخطوط الواحد.

وكان لمكتبة عارف حكمة ختم دائري كتب عليه: «وقفه العبد الفقير إلى ربه أحمد عارف حكمة الله بن عصمة الله الحسيني في مدينة الرسول الكريم عليه وعلى آله الصلاة والتسليم بشرط أن لا يخرج عن خزانته والمؤمن محمول على أمانته ١٢٦٦هـ»، كما كان لها ختم آخر كتب عليه «وقف حكمة الله بن عصمة الله الحسيني ١٢٦٧هـ»، وختم ثالث كتب عليه بالتركية «مرحوم شيخ الإسلام عارف حكمت بك كتبخانة سنك وقفية ملحقات ١٣٣٣»[٣١].

ومن أكبر الاختام التي وقفنا عليها ختم وجدناه على بعض المخطوطات وهو دائري الشكل، قطره ٣٠ر٧ × ٣٠ر٧ سم وقد جاء النص الذي كتب عليه وهو أطول نص داخل ختم رأيناه على النحو التالي:

وقفت هذا الكتاب وقف صحيحاً وحبساً منيفا لمرضاة الله تعالى شرط أن لا يخرج من بيت الكتب في دارى إلا لعلماء هذه البلدة بكفيل أو رهن مرعى بتولية نفسي الذي هو الحاج حافظ علي أفندي بن الحاج محمد غفر الله له ولوالديه، وأحسن إليهما وإليه لقوله تعالى: (فمن بدله بعد ماسمعه فإنما اثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم) الوقف حبس المال على ملك الله تعالى فلا يجوز ابطاله ولا يورث عنه، وعليه الفتوى من در المختار سنة خمسة وسبعين ومائة وألف من هجرة من له العزة والشرف سنة ١١٧٥[٣٤].

ومن الأختام التي تضمنت نصاً مطولاً وهو من أكثرها غرابة من حيث الشكل ذلك الذي ختمت به الكتب التي وقفها أحمد الكريدي، وقد احتوى على النص التالي:

حسبي الله ونعم الوكيل وقفه لله الملك الأحد الصمد الحاج أحمد ابن حسن بن أحمد الكريدى القاضي بمصر المحروسة في الزمان الأسعد لمطالعة الطالبيين المستفيدين ونفع الراغبين المحصلين وشرط أن لا ينقل من المحل المعين المتصل بالجامع الدفتري في محمية قندية فمن بدله بعد ما سمعه فإنما اثمه على الذين يبدلونه غفر الله له ولأبائه وأمهاته ولجميع اقرانه وكافة أهل بلده ومن سعى في حفظه أمين[٣٣].

ويتضح لنا مما سبق أن نصوص الوقف المدونة على الكتب أو الاختام كان يقصد منها اشهار الوقف لمنع العبث به أو بيعه أو التهاون في حفظه، وأغلبها كان يختم بالآية (فمن بدله بعد ما سمعه ..) وغالبية هذه النصوص توضح مسائل تتعلق بالتصرف في أمر الكتاب الوقفي، وطرق استخدامه، وحفظه، والناظر عليه، واسم الواقف، وأحياناً الأسباب التي دفعت إلى هذا الوقف.

كما أن بعض الوثائق الوقفية، والنصوص المثبتة على الكتب، كانت تضم في بعض الأحيان أسماء الشهود ضمن النص، كما نجد في وقفية الأمير أمور بك[٣٤] في حين تكون الأسماء مثبتة في نهاية الوقفية بشكل منفصل تسبقها عبارة شهود الحال[٣٥].

أبنية المكتبات الوقفية :

كما رأينا في الفصول السابقة فإن مجموعات الكتب كانت توضع في أماكن تتناسب والهدف من المكتبة، فإذا كانت مقامة في الأصل لتكون مستقلة بذاتها تؤدى رسالتها لعامة القراء، فإنها تجعل عادة في بناء مستقل، فالوزير سابور بن أردشير عندما أسس مكتبة دار العلم في بغداد ابتاع داراً في منطقة بين السورين لتكون مقراً لهذه المكتبة، ويبدو أن أبا الحسن محمد بن هلال الصابىء فعل مثله وأن كان النص يقول «وقف... دار كتب.. وهي دار بشارع ابن أبي عوف